الحركات القومية وكره الاجانب في العالم العربي

في هذه الساعة الحاسمة التي يبدو فيها العالم منقسما إلى معسكرين مشتبكين في صراع مميت ، يحاول كل منهما جهد طاقته ان يستميل العالم العربي إلى جانبه لسببين رئيسيين : أولهما موقعه الستراتيجي الذي يحتمل ان يشن منه اي منهما هجومه الماحق او يبني فيه وسائل دفاعه ، وثانيهما موارده الطبيعية وعلى الأخص النفط أعظم الموارد الطبيعية أهمية في زمن الحرب او في فترة الاستعداد للحرب .

ويكاد العالم العربي يقف بين هذين المعسكرين المتناحرين عاجزاً ، ضعيف الحيلة ، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً او ضراً ، إلا ان يكون وسيلة إزعاج ، او أداة إقلاق ، وعلى لسانه دعاء واحد يردده صباح مساء : قاتل الله الطرفين . والظاهر ان الغرب ، الذي كانت له اليد الطولى في مصير هذه المنطقة السياسي ، يهم بسطحية وطيش لامزيد عليهما موقف العرب هذا بكره الأجانب . أما « الشرق » ، والأصح ان نقول الشمال والشمال الشرقي ، فيبذل جهده لاستغلال أية مظلمة يعزوها العرب إلى الغرب ، ليستميل

سكان هذه المنطقة إلى عقيدته السياسية والاقتصادية ، وقد نجح في ذلك بعض النجاح .

إن الامر الذي نحاول ان نقرره في هذا المقال ليس هو ما إذا كان العالم العربي ميالاً للغرب او للشرق . فالجواب عن هـذه المسألة واضح بين الوضوح ، ألا وهو ان العالم العربي ليس هذا ولا ذاك . وهو يرغب في ان يجعل علاقته باي من هـذين المعسكرين أضعف ما تكون . أما السبب الوحيد الذي جعل العـالم العربي يبدو معادياً للغرب فهو ان نضاله طوال نصف القرن المنصرم كان موجهاً ضد الغرب . وأغلب الظن ان العالم العربي كان سيصبح معادياً « للشرق » لولا ان الثورة الروسية عام ١٩١٧ قـد أنهت علاقات روسيا المباشرة بهذه المنطقة .

ان ما نحاول ان نبحثه في هذا المقال على وجه التخصيص هو اولاً الاسباب الكامنة تحت ما يبدو انه كره العالم العربي للأجانب . وثانياً طبيعة هذا العداء للغرب ومداه .

وعلى الرغم من ان العالم العربي يؤلف مـا يمكن ان يدعى وحدة إقليمية ، فانه ليس من المستطاع ، ولا من الصحيح ، ان تبحث القضية واحدة في العالم العربي كله . فلم تقم في هـذه المنطقة الواسعة حركة قومية واحدة ، بل حدثت فيها حركات قوميـة متعددة . ولم تكن الحركات القومية واحدة النشأة والتطور ، ولا موحدة الغاية . كما انها لم تنشأ كلها دفعة واحـدة ، ولم تنبثق من

أصل واحد . وهناك أقطار عربية لم تقم فيها اية حركة قوميـــة إطلاقاً . وعلى هذا نرى من الأسلم ان نبحث كلا من هذه الحركات على انفراد وكما ظهرت في موقعها من العالم العربي . وعلى هـــذا الأساس سنبحث تطورات هذه الحركات القومية والاستقلالية في شمال افريقيا ، ومصر ، واقطار الهلال الخصيب بما فيهـــا الحجاز واليمن .

شمال افريقيا

كانت هـذه المنطقة ــ التي تتألف من مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وما يعرف الآن بليبيا ــ خاضعة للامبراطورية العثمانية إسمياً ، باستثناء مراكش ، مستقلة في الواقع ، بمنجاة من سيطرة الخليفة العثماني ، بعيدة عن نفوذه . وقد حكم هذه المنطقـــة بايات ودايات وباشوات وسلاطين وخلفاء بحسب الشريعة والتقاليـــد الاسلامية كما تحجرت في أوائل القرون الوسطى . وكانت تسود هذه المنطقة مؤسسات القرون الوسطى وتقاليدها وعقليتها ونظرتها الى الأمور . وكانت هذه المنطقة منطوية على ذاتها ، لا تصلهـــا بالعالم الخارجي غير صلات قليلة واهية ، إذا استثنينا اعمال القراصنة الذين كانوا يروعون البحر الأبيض المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر . وقـد تخلفت هذه المنطقة ، نتيجة لعزلتها وانطوائها على ذاتها ونموها نمواً داخلياً ، عن جيرانها الشماليين الضاربين في طريق الحضارة والتقدم المادي ، وأصبحت فريسة سهلة الاقتناص على يد بناة الامبراطوريات العسكرية

من أبناء الغرب .

اغتنم الفرنسيون ، عام ١٨٣٠ ، فرصة الخلاف مع الداي على تسديد مبلغ من المال استدانته الحكومة الفرنسية خلال حملة نابليون على مصر ، ليرسلوا على الجزائر جيشاً كبيراً عدته ثلاثون الف جندي . وقد احتاجت فرنسا إلى خمسين عاماً لتثبت حكمها في هذه البلاد . وفي عام ١٨٨١ احتل الفرنسيون تونس بحجة المحافظة على الأمن والنظام على الحدود ومنع تسرب المعونة العسكرية إلى الجزائر . وفي عام ١٩٠٤ تخلت فرنسا عن نفوذها في مصر مقابل موافقة بريطانيا على إطلاق يدها في مراكش . (ويلوح لنا أنه تقوم الآن اتفاقية مثل هذه بين بريطانيا وفرنسا حيث تواجه الأولى مصاعب حقيقية في مصر ، وتواجه الثانية مصاعب أشد منها في تونس) . وفي عام ١٩١٢ دخل الايطاليون معترك بناة الامبراطوريات فاحتلوا طرابلس الغرب .

ان قصة هذه الفتوحات لشمال افريقيا لا تدخل ضمن نطاق دراستنا هذه. على انه خلال هذه الفتوحات تعرفت شعوب افريقيا الشمالية على اوربا : على شعوبها وعلى سلوكهم وطريقتهم في معاملة الناس . مجتمع متحجر يعيش في القرون الوسطى يواجه قوة أرقى منه لا تعرف التراجع ولا اللين ، تستعبد ابناءه ، وتستغل ثروته وخيراته . ان الأسلوب الذي نفذت به سياسة الامبراطوريات ، والطريقة التي قمعت بها حركات المقاومة ، والطريقة التي امتصت بها ثروة المنطقة ، لم تساعد على نمو أية صداقة او تفاهم بين الطرفين ،

وإنما ساعدت على تعاظم خوف السكان الأصليين من ان مجتمعهم وثقافتهم ومؤسساتهم بل وحتى دينهم مهددة بالفناء .

وقد تعاظم هذا الخوف بتعاظم العنف الذي استخدمه الغزاة الفاتحون لقمع حركات المقاومة التي قامت بها هذه الشعوب لتحرير اوطانها . ومع ان كون هؤلاء الغزاة الدخلاء مسيحيين ، وسكان البلاد الأصليين مسلمين ، إنما هو مسألة عرضية ، فقد كان ، أي هذا الفارق الديني ، يعقد المشكلة ، واصبح على مرور الزمن جزءاً جوهرياً من الخصام القائم . وعلى هذا فان أي عمل كان الفرنسيون يقومون به لتوطيد دعائم حكمهم في شمال افريقيا كان يفسر بانه هجوم مباشر على سكان البلاد الأصليين ، وعلى مؤسساتهم ، ومجتمعهم ، وثقافتهم ، ودينهم . وقد أصبح الاسلام ، نتيجة لهذا ، نداء تجمع لمقاومة الأجنبي ، وآلة احتجاج ضده . اما الأجنبي فقد توصل بدوره إلى نتيجة مؤداها ان وضعه في هذه البلاد لا يمكن ان يرسخ ويستقيم أمره ما لم يعطل هذه الآلة النافذة . وقام الفرنسيون ، إلى جانب تثبيت سلطانهم السياسي عسكرياً في هذه المنطقة ، باتباع خطة ذات شقين ، نفذوها بمثابرة وهدوء ، ترمي الى تشجيع نشاط الارساليات التبشيرية المسيحية والجهود الثقافية الأجنبية بين السكان الأصليين ، ومحاربة نشر الاسلام وتقوية دعائمه وذلك بسن قوانين تحدد ، بل وتحرم في اغلب الاحيان ، تعليم اللغة العربية التي هي الحليف الثقافي للاسلام . وبهذا تبدد ما كان عالقاً في أذهان السكان الأصليين من شك في

ان هذا الصراع المحتدم بين الفاتحين والمدافعين إنما هو صراع قائم بين المسيحية والاسلام اصلاً . كان شمال افريقيا المسلم ، بنظر عامة السكان الاصليين ، يواجه حملة صليبية جديدة ، يتحتم عليهم اعلان الجهاد عليها ، وصد عدوانها .

وقد شجع الفرنسيون هجرة الاوربيين الجماعية الى هذه المنطقة واعانوهم على الاستقرار فيها . كما قاموا باعطاء كل الافضليات الممكنة الى الجاليات غير المسلمة المستقرة فيها، وبخاصه الجاليات اليهودية . والحق ان الفرنسيين لم ينسوا ابداً ان الغاية الأساسية من غزوهم لهذه البلاد إنما هي السيطرة على مواردها الاقتصادية .

وكان من الامور الطبيعية ان يجلب الفرنسيون الى هذه البلاد طريقتهم في المعيشة،واسلوبهم في الحياة ، ومدنيتهم الخاصة . وكان لا بد للمدنية الفرنسية ، ولطريقة العيش الفرنسية ان تصطدم بمدنية السكان الاصليين وطريقتهم في العيش . وقد ازداد الخلاف حدة عندما اكد الفاتحون على اهمية الجوانب المادية من حضارتهم ، ووسائل الترف فيها بخاصة . وبغض النظر عما في هذه القضية من حق او باطل فان تأثير الاساليب والمقاييس الاوربية على السكان الاصليين ، الذين لم يتأثروا بالروح الكامنة وراءها ، كان تأثيراً سيئاً ، مفسداً للآداب ، مثبطاً للعزائم . وطبيعي كذلك ان يبذل السكان الاصليون ، او الذين انتبهوا منهم الى هذه المشكلة وملابساتها الخطيرة ، جهد طاقتهم لصد تيار هذه الحضارة الاوربية

المادية .

وعلى هذا فقد شمل هذا الصراع كل مظاهر الحياة — السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بل والدينية ايضاً . وكان رد فعل السكان الاصليين ، المشحون بكل هذه العناصر التي تقدم ذكرها ، والتي يكفي واحد منها لاثارة صدام اساسي كبير ، طبيعياً ، مركزاً ، حاداً . اما الاشكال التي تشكل بها هذا الصدام فمختلفة متنوعة . وهي تتضح احسن ما تتضح ويمكن تتبعها بالامور التالية : اولاً بالحركات السياسية التي قامت في طول هذه المنطقة وعرضها والتي كانت تصطبغ على الدوام بصبغة دينية ، ثانياً بالحركات الوطنية التي ظهرت الى الوجود نتيجة للضغط الاوربي ، وثالثاً بنمو الصناعة الوطنية ، ورابعاً بالمقاومة العامة للحكم الاجنبي .

وقد اصبحت جميع هذه الحركات وسائل للاحتجاج على الفاتحين ومقاومة عدوانهم . وطبيعي ان تنمي هذه الحركات بدرجات متفاوتة ، تخوف السكان الاصليين من كل شيء اجنبي ، سواء في ذلك الافكار والناس ، وخاصة التخوف من الحضارة والثقافة الاوربية اللتين تمثلان بنظرهم الرجل الاوربي الذي يناضلون ضده ، ويحاولون صد عدوانه . ونتيجة لارتباط الحضارة الاوربية بالحكم الاوربي المقيت في اذهان مسلمي شمال افريقيا ، فقد ولدت هذه الحركات كرهاً للاجانب وخاصة كرهاً للاوربيين ، وبغض كل ما يمت الى الحضارة والثقافة الاوربية .

كان اول معرفة مصر بالغرب الحديث قبل حوالي قرن ونصف قرن ، حيث نجحت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون باحتلال البلاد مدة ثلاثة اعوام . وبالرغم من الادارة الرشيدة التي اقامها نابليون في مصر ، والاصلاحات العديدة التي حققها فيها ، فقد كان الجيش الفرنسي بنظر عامة المصريين جيشاً غازياً معتدياً . ولكن كتب للنفوذ الفرنسي ان يرسخ في مصر . فقد ظل حكام مصر من بعد نابوليون وأخصهم محمد علي وأحفاده يتطلعون الى فرنسا كلما احتاجوا الى عون ثقافي وتقني . على ان بريطانيا — التي يعود اليها فضل طرد الجيش الفرنسي عام ١٨٠٣ الى حد بعيد — مالبثت ان واجهت مصر بالأمر الواقع حينما اغتنمت فرصة انشغال الفرنسيين بحل مشاكلهم في تونس والهند الصينية ، ومشاكلهم مع المانيا بخاصة ، فأنزلت جيوشها الى الاسكندرية عام ١٨٨٢ ، بحجة حماية الاوربيين . كان احتلال بريطانيا لمصر هذا اجراء موقتاً . فقد قيل ان حكومة غلادستون لا تنوي احتلال مصر باي شكل من الاشكال . ولكن الجيوش البريطانية ما زالت معسكرة في مصر حتى يومنا هذا .

وأخذت الحركة الوطنية في مصر تصطبغ بصبغة العداء للاجانب منذ بداية هذا الاحتلال المؤقت . ومهما يكن من شيء فان المصريين لم يرحبوا بالحكم البريطاني ، في حين ان الانكليز يعتبرون وضعهم في مصر جزءاً جوهرياً من نظامهم الامبراطوري . وولدت

المقاومة المقاومة ، وأنتج العنف العنف . وقد ضاعف عدم مقدرة المصريين على تحرير انفسهم من السيطرة البريطانيـة من شعورهم بالفشل ، وألهب عواطفهم . اما النتيجة الطبيعية لهـذا الصراع العنيف غير المتكافيء فهو الحقد الدفين .

وفي مصر، كما في شمال افريقيا، صادف ان كان اغلب المصريين مسلمين ، والانكليز مسيحيين . فانتهى الأمر الى ان اصبح الاسلام ، في مصر أيضاً ، اداة مقاومة واحتجاج . ولكن بنتيجة الصفة العالمية التي تتمتع بها كبرى المدن في مصر : القـاهرة والاسكندرية ، وبسبب مصالحها التجارية الواسعـة مع اوربا ، وبسبب موقعها الممتاز الواصل بين القارات الثلاث، لم تبلغ العداوة للاجانب في مصر حد البغضاء لكل شيء اجنبي ، او حـد التنكر للحضارة والثقافة الاوربية كما حدث في شمال افريقيا . والحق ان الحركة في مصر ، تحت تأثير جمال الدين الافغاني وتلاميذه محمـد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وحسن البنا مؤسس جماعـة الاخوان المسلمين ومرشدها الاول ، كانت ترمي الى تملك النواحي المادية من الحضارة الاوربية واستخدامها في الدفاع عن الاسلام ، وفي صد عادية الغرب . والظاهر إنه لم يكن ليقلق بال كثير من المصريين ان يعلموا فيما إذا كان من المستطاع، او من غير المستطاع ان يضعوا الحضارة الاوربية في حقيبتين منفصلتين تحتوي احداهما على عناصرها المادية والاخرى على عناصرها الروحية ثم يأخـذوا احداهما ويتركوا الاخرى . ويكاد المصريون جميعـاً ان يعزوا

تفوق الغرب وسيادته الى قوته المـــادية . ومن هنا أصبح من الضروري لهم ان يبادروا الى الحصول عـــلى تلك القوة المادية ويستخدموها لتحطيم سيطرة الغرب وسلطانه .

بدأ الانكليز احتلالهم المؤقت لمصر عام ١٨٨٢ كما تقدم معنا . وفي مطلع الحرب العالمية الاولى اعلنوا حمايتهم على البلاد واستبدلوا السلطان بالخديوي . وفي أعقاب تلك الحرب طلب سعـد زغلول واثنان من رفاقه من المندوب السامي البريطاني ان يسمح لهم بالسفر الى لندن للمفاوضة بشأن الغاء الحماية على مصر واعلان استقلالها . ولكن المندوب السامي أعلمهم بانه غير مخول ان يجيب طلبهم باي شكل من الاشكال . وقد سجلت هذه الحادثة ميلاد حزب الوفد المصري ، بل ميلاد الحركة المصرية ذات الاهداف الواضحة في الحقيقة . وانقضت عشر سنوات قبـــل ان يقتنع البريطانيون بضرورة الغاء الحماية ، والتلويح بامكانية رفع حالة الطوارىء التي كانت تمسك بخناق البلاد منذ بداية الحرب العالمية الاولى . وانقضت خمس عشرة سنة ، كانت مليئـــة بالاضرابات والتظاهرات واعمال العنف والاغتيالات السياسية ونفي الزعماء الوطنيين بالجملة ، قبل ان تنظم العلاقات المصرية ــ البريطانيـــة بالمعاهدة البريطانية المصرية لسنة ١٩٣٦ .

كان الحكم البريطاني ، بغض النظر عن الأسماء التي تسمى بها ، يزعج الوطنيين المصريين ، ويضايقهم ، ويملأ قلوبهم غماً . وفشل الاحتلال المؤقت ، والحماية ، والاستقلال الاسمي والمعاهدة اليوم ،

ان تزحزح البريطانيين عن مصر ، وتريح المصريين منهم .

وكانت هذه المعاهدة بالنسبة الى بريطانيا وسيلة لاستمرار تسلطها على البلاد وعلى قناة السويس بخاصة . وعند اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ توضح للمصريين ، اكثر فأكثر ، بان على مصر إما ان تساير السياسة البريطانية وتخدم مصالحها ، او تخضع للاحتلال البريطاني السافر من جديد . ولكن مصر سلمت من هذا المصير في الظاهر ، بثمن باهظ لكل من بريطانيا ومصر ، عندما اقتحم السفير البريطاني ، في ٤ شباط من عام ١٩٤٢ ، القصر الملكي ، وفرض على الملك فاروق بجد المسدس ، النحاس باشا ، مرشح بريطانيا لرئاسة الوزارة [١] . وقد حفظت المصالح البريطانية مؤقتاً ، ولكن كرامة الملك الشاب المهانة ، ما فتئت تضايقهم وتقض مضاجعهم .

وقد عملت التطورات الأخيرة ايضاً على تقوية الشعور الوطني في مصر . وأهم هذه التطورات قيام دولة إسرائيل بوساطة دسائس الغرب وتأييده ، والعنف المتزايد الناتج عن حماية بريطانيا لوضعها المضعضع في مصر ، الذي لا تمكن حمايته والدفاع عنه . وقد أظهرت الحرب المصرية ـ الاسرائيلية ، فيما أظهرت ، ان سبعين عاماً من احتلال بريطانيا لمصر وسيطرتها عليها ، وخاصة على الجيش ، قد اخفقت إخفاقاً ، لا يبعد ان يكون مقصوداً ، في تزويد مصر بجيش قادر على القيام بوظيفة الجيش الوحيدة المشروعة

---

(١) وقد اضطر هذا الملك ان يخضع للمسدس مرة اخرى عندما أكره في ٢٣ تموز ١٩٥٢ على تطهير بطانته وثانياً في ٢٦ منه عندما خلع واقصي عن البلاد.

ـ ألا وهي الدفاع عن الوطن . وقـد وضع اندحار القوات المصرية ، وعلى الأخص في الفالوجة ، هذه الحقيقة نصب أعـين المصريين . فتقاربت كل المرارة المختزنـة ضد الأجانب ، وضد البريطانيين خاصة ، حد الانفجار .

واستؤنفت الحركة لتخليص البلاد من السيطرة البريطانيـة ، بحرارة متزايدة ، من قبل نفس الرجل الذي فرضه الانكليز عـلى الملك فرضاً عام ١٩٤٢ ، لتؤدي إلى إلغاء معاهـدة ١٩٣٦ من جانب واحد في ١٥ تشرين الأول ١٩٥١ . وقد جند النحاس كل ما عند ابناء الشعب من احتياطي عاطفي وكل ما يضمرونه للانكليز في قلوبهم من حقد وضغينة ، ولكنه اخفق في حشد موارد البلاد الحقيقية ومؤسسات حفظ الأمن فيها لتدعم عمله . وكانت الكارثة امراً محتوماً ، محقق الوقوع .

على انه كان مقدراً لأبشع مظاهر كره الأجانب ان تحـدث عقب الهجوم البريطاني المسلح على قوات الشرطة الاحتياطيـة في الاسماعيلية الذي تسبب عنه قتل خمسين جنـدي ، وجرح حوالي الثمانين ، وأسر اكثر من الف ، بعد ان قصفت الثكنة بالمدافـع قصفاً شديداً حتى انهارت على المدافعين عنها من المصريين . واذا لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي ادى الى حريق القاهرة التاريخي من قبل الغوغاء في يوم السبت المصادف ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ ، فقد كان بلا شك الشرارة التي اشعلت البارود . ولكن مهما كانت الاسباب التي ادت الى ذلك الحريق الهائل ، ومهما كانت العوامـل

التي اذكت لهيبه ، وبغض النظر عن الخراب والدمار الذي تركه بوجه المدينة المادي ، والذي انزله بسمعة مصر في الخارج ، فان حريق القاهرة يجب ان يفسر دائماً بكونه تجسيما لرغبة المصريين في التخلص من الحكم البريطاني ، والتدخل البريطاني .

بلاد الهلال الخصيب

كانت بلاد الهلال الخصيب جميعاً — التي تشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وكذلك جزء من الجزيرة العربية الذي كان يعرف حينذاك بالحجاز — حتى نهاية الحرب العالمية الاولى خاضعة للسيادة العثمانية . فمنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر اخذ الاتراك العثمانيون يحكمون العالم العربي الواقع في آسيا باعتباره جزء من امبراطوريتهم . واغلب الظن ان كون الاتراك العثمانيين مسلمين كان العامل الاكبر في قبول العرب للحكم التركي ، وعلى الأخص إذا علمنا ان عقلية القرون الوسطى التي كانت تعتبر الانسان فرداً من جماعة دينية اولاً ومواطناً في هذا القطر او ذاك ثانياً ، كانت ما تزال سائدة آنذاك . وكانت القومية والولاء القومي ، بمفهوميهما العصريين ، غير معروفين البتة . وعلى هذا كان ابناء « الرعايا » هم الوحيدون الذين كانوا يحاولون الانفصال عن الحكم العثماني ، ويشعرون دائماً بان هذا الحكم العثماني انما هو حكم اجنبي دخيل . وكانت اغلبية هؤلاء « الرعايا » تسكن الاقسام الاوربية من الامبراطورية العثمانية ، وفي تلك المناطق اخذت المقاومة الاولى

للسيادة العثمانية تفصح عن ذاتها وتؤكد وجودها . على انه منذ القرن التاسع عشر اخذت فكرة القومية تظهر للوجود بشكلها الواضح، اولاً في اوربا، ثم في الاقسام الاوربية من الامبراطورية العثمانية . اما المناطق العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني فقد استجابت لهذه الفكرة الجديدة الديناميكية استجابة ضعيفة بادىء ذي بدء ، ثم استجابات متعددة الاشكال ، متفاوتة الدرجات فيما بعد . وكان اول من بشر برسالة القومية بين العرب ، كما هو متوقع ، هم ابناء « الرعايا » أي المسيحيين الذين وجدوا في القومية أداة صالحة ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية ، بل وللخروج من حدود الدائرة الاسلامية الى وسط أرحب حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذيبوا انفسهم في ولاء واحد شامل .

وقد أحيت اليقظة الثقافية العربية — التي لاحت طوالعها في اثناء الحملة النابليونية على مصر والتي حفزتها الفعاليات الثقافية لمختلف الجمعيات التبشيرية المسيحية ، في الوقت نفسه — اهتمام العرب بتراثهم القومي ، وابتعثت اعتزازهم به . وقد اكتسب هذا التحول الحيي المتردد نحو القومية طاقة دافعة وتصميما أكيداً عندما اصبح الاتراك اكثر إلحاحاً في مطالبهم على العرب ، وعندما اصبحت ادارتهم اعظم تفسخاً وانحطاطاً ، وأشد تميزاً بين السكان . وقد ساعد الحكم الحميدي — الذي امتد من سنة ١٨٧٦ الى ١٩٠٨ ، والذي تميز بكبته للحريات ، واجراءاته الاستبدادية ، ومذابح

للاقليات الدينية – على نمو الشعور القومي بين العرب . وكانت الفترة التي انقضت بين سقوط عبد الحميد في سنة ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤ ، فترة حافلة بالنشاط القومي المركز ضد السيادة التركية . وفي الحق ان كل الجمعيات العربية السرية ، تقريباً ، قد ظهرت خلال تلك الفترة من الزمن .

وقد اكتسبت عداوة العرب للعثمانيين طاقة دافعة عندما وعد الحلفاء العرب بتأييد امانيهم الاستقلالية ، مقابل معاونة العرب للحلفاء ضد الاتراك وحلفائهم خلال الحرب العالمية الاولى ، وقد بلغت هذه الحركة اوجها عندما دعا الحسين ، شريف مكة ، العرب الى الثورة المسلحة على الخليفة العثماني في حزيران من عام ١٩١٦ .

ان مطامح الحسين الشخصية ، وتشجيع الحلفاء ، ومواعيدهم ومساعداتهم للعرب ، بالاضافة الى امانى العرب القومية انفسهم ، وحقدهم على الاجراءات الباغية التي نفذها جمال باشا في سوريا ، جعلت هذه الثورة امراً محتوماً لا بد من وقوعه . على ان الاهمية الكبرى لهذه الثورة تنحصر في كون المسلمين قد ثاروا على اخوانهم المسلمين ، وعلى خليفتهم وسلطانهم في سبيل فكرة ما – مهما كانت هذه الفكرة غامضة . وكانت هذه الفكرة هي القومية العربية . وزيادة على ما تقدم فان هؤلاء العرب المسلمين قد حالفوا المسيحيين مؤملين تحقيق امانيهم القومية .

أما قصة نكث الحلفاء بوعودهم التي اعلنوها للعرب خلال

الحرب ، وخيبة آمال العرب، فمعروفة تمام المعرفة . فبدلاً من ان يتمتع العالم العربي بحريته واستقـــلاله ، قسم الى مناطق نفوذ وانتدابات. وخير من يصف لنا حقيقة الانتداب هو اللورد كرزن في خطاب القاه في مجلس اللوردات في ٢٥ حزيران سنة ١٩٢٠ . فالانتداب بنظر اللورد كرزن ما هو إلا أسطورة خيالية ما دام نظام الانتداب بأسره قد اخترع لتقسيم المناطق المحتـلة بين الغزاة الظافرين .

اما المناطق العربية — التي انتزعت من العثمانيين بمعونة العرب أنفسهم — فقد توزعتها بريطانيا وفرنسا . وأضحت قصة الانتداب هي قصة الصدام بين القومية العربية وبين سياسـة بريطانيا وفرنسا الامبراطورية . وقد اكتسبت الحركة الوطنية في كل قطر عربي صفة العداوة والبغضـــاء لهاتين الدولتين . ولكن على الرغم من القسوة التي استخدمتها هاتان الدولتان لاخماد حركات المقاومـــة العربية لسياستهما الامبراطورية ، وعلى الرغم من المرارة التي ولدها نكثهم بوعودهم السابقة للعرب ، بل وعلى الرغم من خيانـــة بريطانيا الظاهرة لعرب فلسطين بعد ان حكمتهم خمساً وعشرين سنة ، فان الحركة الوطنية في أي بلد عربي لم تنقل هذه العـــداوة وتلك البغضاء الى الثقافة الاوربية ، والافكار الاوربية . وتشبـه اقطار الهلال الخصيب مصر من هذه الناحية . فقد اخـــذ الناس يطلبون الافكار الاوربية ، ويقتبسونها ، بدون تمييـــز تقريباً ، ويتقبلونها بقضها وقضيضها .

اليمن

ان هذه « البلاد السعيدة » لما تعرف بعد ماهية القومية ، ولم تشهد قيام أية حركة قومية في ربوعها لانها بقيت مستقلة ، منعزلة . واسلوب الحكم فيها اسلامي يعود الى القرون الوسطى . وبامكان المرء ان يقول بان هذا القطر العربي ما زال يعيش في القرن الثالث عشر ، وما زالت اليمن ، بسبب التجارب المريرة التي عانتها اخواتها العربيات اللاتي يفقنها حضارة على أيدي الدول الاوربية ، تنظر الى اوربا والى الاوربيين والى الثقافة والافكار الاوربية نظرة ملؤها الشك والخوف اللذين هما قوام البغضاء .

ان من يتتبع بتجرد وحياد هذا القرن ونصف القرن من الصدام القائم بين الحاكمين والمحكومين يجد ان الحقيقة المهمة ليست هي وجود كراهية للاجانب بل بالاحرى عدم وجود الكراهية للاجانب الى حد بعيد . ان كراهية الاجانب لم تكن الدافع للقومية العربية باكثر مما كانت الدافع للقومية الاميركية في القرن الثامن عشر ، وللقومية الايطالية في القرن التاسع عشر ، وللقومية الارلندية في القرن العشرين . وكراهية الأجانب هذه إنما تكون جزءاً جوهرياً من كل حركة قومية . فعندما تكون البلاد قوية فان حركتها القومية تجد تعبيراً لها في العزلة عن العالم ، أو حتى في الاعتداء على البلاد الاخرى . اما عندما تكون البلاد ضعيفة فانها قد تجد تعبيراً لها في الخوف والحقد . ولكن جميع الحركات القومية تشارك في جملة «ستيفان ديكاتور» المشهورة: « وطني اولاً :

ظالماً أو مظلوماً » .

لا اراانا متجنين على العقل ، مخالفين للمنطق إذا استنتجنا من الحقائق المتقدمة بان العرب ، وحتى المسلمين ، إنما يكرهون الاجانب ليس لأنهم أجانب بل بسبب تجاربهم مع هؤلاء الاجانب وبسبب خوفهم منهم . وقد كان العرب يسيرون تلقاء اوربا على اكثر من طريق واحدة ، كما شوهد خلال الفترة التي اعقبت احتلال نابليون لمصر ، وخلال العهد الحميدي ، وقبيل قيام الحرب العالمية الاولى نفسها . فقد حالف العرب خلال الحرب العالمية الاولى على الخصوص ، المسيحيين وتعاونوا معهم ضد العثمانيين اخوانهم في الدين . وعلى الرغم من خيبة آمالهم المريرة بالحلفاء بعد الحرب العالمية الاولى ، وبالرغم من تجربتهم القاسية للادارة البريطانية والفرنسية الاستعمارية ، فقد انضموا الى الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، ولكنهم ما عتموا ان وجدوا الحلفاء يضحون بهم في سبيل القومية الاسرائيلية القائمة على الجنس والدين . لاعجب ان العرب لايحبون هؤلاء الاجانب ، والعجيب كل العجب ان يفعل العرب غير هذا .